جدلية الشوق والشرق

قراءة في قصيدة ابن زيدون[1]: "إني ذكرتك"

الأستاذ علي الغيلوفي

(تونس)

النص (**البسيط**):[2]

١ – إِنِّي ذَكَرْتُكِ بِالزَّهْراءِ مُشْتَاقَا وَالأُفْقُ طَلْقٌ وَمَرْأَى الأَرْضِ قَدْ رَاقَا

٢ – وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلاَلٌ فِي أَصَائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقَّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا

٣ – وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ كَمَا شَقَقْتَ عَنِ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقَا

٤ – نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا

٥ – كَأَنَّ أَعْيُنَهُ، إِذْ عَايَنَتْ أَرَقِي بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا

---

(1) اعتمدنا في تخريج القصيدة على ديوان ابن زيدون في ثلاث نسخ مختلفة: النسخة الأولى شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطبع و النشر، الفجالة، القاهرة،(د. ت)، ص ص١٣٩- ١٤٠. والنسخة الثانية، تحقيق مرعشلي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص١٥٣. والنسخة الثالثة من الديوان، حققه و بوبه وشرحه وضبط بالشكل أبياته حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، (د، ت)، ص ص٣٩٨-٤٠٠. وبمقارنتنا للقصيدة في النسخ الثلاث، وقفنا على اختلاف في عنوان القصيدة، وعلى اختلاف في ترتيب الأبيات، حيث التقت النسختان الأولى والثالثة في الترتيب واختلفتا في لفظ في البيت٩: ففي النسخة الأولى نقرأ في صدر البيت: "عن ذكركم" وحينها يستقيم الوزن والمعنى فاعتمدناه. وفي النسخة الثالثة، نقرأ: "عق ذكركم"، فيستقيم الوزن ويبقى المعنى في حاجة ماسة إلى الدقة، فأهملناه.

(2) أفدنا من منهج توفيق بكار في تحليل النصوص في "شعريات عربية"،ج٢، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٩. فتتبعنا القصيدة بالتحليل بيتا بيتا.

٦- وَرْدٌ تَأَلَّقَ في ضَاحِي مَنَابِتِهِ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقَا
٧- سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ وَسْنَانُ نَبَّهَ منهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا
٨- كُلٌّ يَهِيجُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكِ لَمْ يَعْدُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
٩- لاَ سَكَّنَ الله قَلْبًا عَنَّ ذِكْرُكُمُ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشَّوْقِ خَفَّاقَا
١٠- لَوْ شَاءَ حَمْلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى وَافَاُكمُ بِفَتًى أَضْنَاهُ مَا لاَقَى
١١- يَوْمٌ كَأَيَّامِ لَذَّاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ بِتنْا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهرُ سُرَّاقَا
١٢- لَوْ كَانَ وَفَّى المُنَى في جَمْعِنَا بِكَمُ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الأَيَّامِ أَخْلاَقَا
١٣- يَاعِلْقِيَ الأَخطَرَ الأَسْنَىَ الحَبِيبَ إلى نَفْسِي إِذَا مَا اقْتَنَى الأَحْبَابُ أَعْلاَقَا
١٤- كَانَ التَّجارِي بِمَحْضِ الْوُدِ مُذْزَمَنٍ مَيْدَانَ أُنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلاَقَا
١٥- فَالآنَ أَحمَدَ مَا كُنَّا لِعِهْدِكُمُ سَلَوْتمْ وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَّاقَا

المقدمة:-

يقوم هذا البحث على تحليل خصائص الخطاب الغزلي سواء من الناحية المضمونية والدلالية أو من الناحية الأسلوبية التعبيرية. والدافع إلى تحليل هذه القصيدة هو الوقوف على تقاطع جنسين شعريين: الطبيعة والاستعطاف في جنس شعري واحد: الغزل. وهو تقاطع له دلالاته وإيحاءاته باعتباره ينم عن إبداع يشهد للشعراء الأندلسيين بالبراعة في مزج أجناس شعرية فرعية في جنس شعري عام.

تهدف هذه القراءة إلى الوقوف على جوانب من إنشائية القصيدة العربية القديمة

المشكلة من تقاطع ثري لجملة من المعطيات، منها المعجمي و اللغوي والبلاغي والصـــوتي. تتقاطع وتتكامل منبئة عن المعنى لتومئ إلى الدلالة.

يعد النص الذي نتناوله بالتحليل ١٥بيتا من الشعر العمودي، ويعتبر في عـــرف النقـــد العربي القديم قصيدة[٣]. وهي محكومة بقاعدة الوحدات الثلاث: وحدة البحـــر والقافيـــة والبناء العمودي. والشاعر هو أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومـــي (٣٩٤/١٠٠٣-٤٦٣/١٠٧٠)، ولد بالرصافة من ضـــواحي قرطبـــة.انغمس في الحيـــاة الاجتماعية والسياسية.علق ولادة بنت المستكفي و نازعه في حبها الوزير أبو عـــامر بـــن عبدوس فمالت إليه.وقصيدتنا هذه تندرج ضمن سياق استرضاء ابن زيدون لولادة علـــها تعود إلى سالف عهدها به.

لا ندري قصة العنوان أهو من وضع الشاعر أم من وضع المحققين. فقـــد أثبتـــه محقـــق النسخة الأولى: "مجالي الزهراء"، وأثبته محقق النسخة الثانية "إني ذكرتك بالزهراء"، وأثبته محقق النسخة الثالثة "إني ذكرتك". ومهما يكن من أمر، فهو الفاتحة والمؤطر للقصـــيدة، إذ الحدث قد طوته الذكرى وحركته الذاكرة التي ترفض أن تستكين للنسيان. وقـــد حـــل الشاعر بالمكان "الزهراء" وهي على ما هي عليه من جمال ساحر يشحذ القريحة فتتفتق عن ذكر الحبيبة، والذكر دليل الشوق.

وردت القصيدة على البحر البسيط، وهو بحر ذو نفس طويل يستعمله الشعراء بكثرة، قصائده تغنى فتطرب، وتسمع فتعلق بالنفس. وهـــو ذو ازدواج في التفعيلـــة (مســـتفعلن، فاعلن) قد ينبئ عن ازدواج في الشخصية:(راغب / سال، مسترضٍ/ مسترضى).

هز الشاعر الشوق إلى ولادة، فحن إليها، فتجول في المكان يتسقط آثارها و يشتم عن بعد أخبارها. نطق بالقصيد وصدح كالبلبل الغرّيد تلهفا لرؤية الحبيب. فكانت القصـــيدة

(٣) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص ص١٨٨-١٨٩.

ذكرا تحركه الذكرى. وباعتماد التوكيد حرفا وذكر الحال نحوا، افتتحت القصيدة.

لعل في ذكر حالين متتاليين (مشتاقا، والأفق طلق...) تركيبا ومعنى مـا يـبرر شـدة الشوق، فذكر الحبيبة "ولادة"، وأعظم بها من شاعرة، فارتبطت أحاسيس الشاعر بمنحيين اثنين: المنحى الأول تمثله العاطفة الدفينة التي ضاقت ذرعا بالبعد والانفصـال، والمنحـى الثاني مرتبط بجمال المكان، يزداد روعة بحضور ولادة به ولو بالغياب. فالأصوات المعـبرة عن معاني الجمال والانشراح، هي نفسها المعبرة عن الشـعور بـالألم والاختنـاق(تكرار صوت القاف)كما يوضحه الرسم التالي:

- مشتاقا حالة بين الألم والانشراح. الداخل(٤).

- الأفق طلق حالة من الانشراح. الخارج(٥).

- قد راقا حالة من الانشراح. الـداخل/ الخارج(٦).

تكرر صوت القاف الموحي بالاختناق والشرق لا بلذيذ الطيـب مـن العـيش، بـل بالعواطف المشحونة من جانب واحد: الشاعر. ومما يزيد من حدة الشرق سلوّ ولادة وقـد أكده الشاعر عند انغلاق القصيدة:

ب١: مشتاقا، راقا.

ب١٥: بقينا، عشاقا.

(٤) le dedans.

(٥) le dehors.

(٦) le dehors/ le dedans.

- للتوسع في أبعاد المكان، انظر:-

g.Bachelard. la poètique de l'espace, ١٢è éd. Pu. F. paris. ١٩٨٤. p ١٩٦.

شرق شديد يصيب الشاعر لا برء منه ولو بالنحنحة[٧]. والأمل في لقاء ولادة ضـــعيف إن لم نقل هو مستحيل بدليل قوله: "سلوتم" في خاتمة القصـــيدة (ب١٥) وهـــو موقـــف منسوب إلى ولادة السالية في تقابل تام مع حفظ العهد المحرك الرئيس للقصـــيد والباعـــث على هيام الشاعر منفردا في طبيعة الزهراء.

ورد البيت في شكل جملة طويلة النفس، وهي مجال يتنفس فيه الشاعر من شدة الغصـــة الملازمة له. ومن هذا المنطلق، تصبح الأبيات بطول مداها، والجملة بتعقد تركيبـــها دلـــيلا على تعقد العاطفة وصدقها وكبر حجمها. فضاقت بها نفسه، فازداد اختناقه ولم ينج منـــه على امتداد القصيدة(١٥بيتاً).

ب٢:

تستمر حكاية الأحوال في القصيدة معبرة عن عاطفة الشاعر من جهـــة وعـــن جمـــال الطبيعة من جهة ثانية. بل لعل ما يميز هذه القصيدة توافق عـــاطفتين إن صـــح التعـــبير– عاطفة الشاعر وعاطفة المكان(الزهراء). فاعتلال النسيم من رقة أحاسيس الشاعر. أشـــفق عليه فرق لحاله فاعتل. لا يعنينا الترتيب الزمني للأحداث، بل ما يعنينا حصـــول الحـــدث مشتقاً من الفعل المزيد، "اعتل" الدال على شدة الوقوع. وهي شدة تخفي تعاطفا و تجاوبـــا مع ما يعانيه الشاعر من شوق اختاره الشاعر عنوانا له في قصائد الحنين. ينفذ الشـــاعر في مسام الطبيعة، فتقاسمه الأسى وهو يتسقط آثار ولادة.

ورد البيت في شكل جملة اسمية مركبة. وللاسمية دلالتها، كما للتركيب دلالته. الاسمية للإخبار والتركيب لبيان حال الشاعر. لين النسيم عبر عنه الشـــاعر بترديـــد مقصـــود: "اعتلال، اعتل". الاعتلال نفسه يعانيه الشاعر مضاعفا، وما الترديد في البيت و الزيادة في

---

(٧) النحنحة: تكرار صوت الحاء عند الشرق بالماء أو بالطعام في سلوك الناس للتنفيس عن الحلق.

الفعل إلا دليل على ذلك.

تجيش عاطفة الشاعر وتسير في خط معاكس لسير الوصف كما في الشكل الموالي:

ب١: الأفق، مرأى الأرض.

ب٢: النسيم.

ب٣: الروض والماء.

يترل الوصف من الأعلى إلى الأسفل. وهو خط اختاره الشاعر معاكسا لظروفه النفسية. يقابله تأجج لعاطفته وتبرمه بما هو فيه من الحرمان من لذيذ الوصل، فيزداد الشوق والشرق، وهي ثنائية فرضتها ظروف الشاعر العاطفية متقاطعة مع سلو من كان يكلف بها فآورثته شرقا وغصة كما ورد في قوله في البيت٣.

ب٣:

لزم جمال الروض في هذا البيت "الحياد"، فلم يتعد تعاطفه مجرد الابتسامة "مبتسم" تلوح من اللمعان، انعكاس ضوء الشمس على سطح الماء، وهي صورة، لم ترق إلى مستوى تهدئة خواطر الشاعر المضطرمة أصلا. بل ساهمت في تأجيجها. و بيان ذلك أن الأشعة الصادرة عن الضوء صورة للالتهاب الذي يعانيه الشاعر شوقا إلى لقاء من عز لقاؤه سلوا مقصودا متعمدا و "قد شط مزاره". تلك هي حال الشاعر غصة بعد غصة، شرق بعد شرق. يتتالى صوت "القاف" في "شققت" فكا للإدغام صرفا، وتثبيتا للغصة معنى، وصولا إلى حدة التناقض بين الراغب والسالي: الشاعر وولادة على مستوى الدلالة.

يطرب الشاعر لرؤية الطبيعة، لكنه – وحاله على ما رأينا – لا يستطيع أن يخلق صورة

من الاطمئنان تمكنه من الوقوف على منحى جمالي واحد: النسيم فالروض فالمـــاء... لقـــد هيجت الذكرى، ذكرى من كان بوده أن تكتمل صورة الطبيعة بجماله. فتمتزج صـــورتا الجمال: الموجود والمنشود: الطبيعة وولادة. ثنائية تشد أجزاء القصيدة إلى بعضها الـــبعض شدا متماسكا.

ولعل الغصة والشرق ميسم يميز العشاق من الشعراء وقد ضاقت بهم الحال، فيلجـــؤون إلى حضن الطبيعة الدافئ عساهم يظفرون بشيء من الراحة النفسية. لكن حـــال الشـــاعر غير الحال، فهو يذكر ماضيا قسا عليه قسوة ولادة وقد سلته. فالقسوة والمحنة مضـــاعفتان: الذكرى تهيجه وقلب الحبيبة يؤلمه. بل إنه قلب كالحجارة (**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْـــرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ**)[٨]: إنه أمل موجود لكن مع قلب ولادة أمل مفقود.

ب٤ :

ولئن خلا البيت من "القاف" المؤلمة عدا قاف "أعناقا" وقد فرضتها القافية. فإنه يبـــدو موحيا بالراحة ونعيم المتعة بالجمال دلت عليهما الأفعال: "نلهو، يستميل، جـــال، مـــال". وهي أفعال مسندة كما يلي:

- نلهو: فعل مضارع مسند إلى ضمير المتكلم الجمع (نحن)، يـــوحي بحصـــول المتعـــة واشتراك العاشقين المتآلفين فيها: الشاعر وولادة . لهو مشترك موحد ولذيذ ممتـــع، تـــرك زوالهما الحسرة في قلب الشاعر. والحسرة حسرتان: حسرة سببها الزمن، وحسرة ســـببها هجر ولادة وسلوها.

- يستميل، جال، مال: أفعال مستلة من معجم الرقة وصفات الميسان، ولئن أســـندت إلى عناصر الطبيعة: زهر، ندى، فهي باعث ومثير لمعالم الجمال في نفس الشاعر.

---

(٨) سورة البقرة رقم٢، الآية٧٤

لقد امتزج ذكر ولادة وذكر الطبيعة حتى لا انفصال بينهما، فكلاهما يحيل على الآخر. الطبيعة تذكر بولادة، وجمال ولادة ماثل في الطبيعة. اثنان حلا جسدا واحدا. أو ليس السلو مفرق اللذات. أو ليس السلو حينا قبل الحين. أو لا يموت الشعراء العشاق حسرة وكمدا!؟

ب٥:

انتهى البيت ٤ بانغلاق على غصة تجسدت في القافية، وفي ما عدا ذلك، كان المظهر الجمالي الذي ترسخ في ذاكرة الشاعر يثير اللهفة على ما فات. إلا أن البيت ٥ مليء بالدمع قولا وفعلا، وإن كان ضربا من الخيال لأن الوصف خاضع لنواميس التشبيه الذي جعل الأرق يتحول إلى بكاء كانت الدموع نتيجة حتمية له لارتباط الأفعال ببعضها البعض ربطا عليا منطقيا بموجب فاء السببية:"عاينت.. بكت.. فجال..". لبكاء شعراء الغزل والحنين صورة وصوت نحتتهما البلاغة: "جال الدمع رقراقا.. "بكاء مختلط بالنحيب على لذيذ وصل انقطع ولا أمل إلا أن يقصد القصيد.

يتوفر في البيت ضرب من التصريع: عروضه وضربه حرف القاف "أرقي، رقراقا" .وقد تأزمت حال الشاعر من غصة واحدة في المصراع الأول إلى غصتين في المصراع الثاني. استبد بالشاعر الحزن لفوات زمن الوصل فأصبح أثرا بعد عين تخلده الذكرى والقصيدة. فلم يبق من الوصل إلا المكان. فلاذ به الشاعر يستذكره ليرى إشراقة أيامه ماثلة في الخيال تجسدها الطبيعة بمباسم الجمال فيها.

لقد بكت الطبيعة بمكوناتها حال الشاعر وتعاطفت معه في محنة الانفصال. فساهم الأثاث اللغوي[٩] في تصوير حال الطبيعة باكية منتحبة، مخففة من شجون الشاعر مرة،

---

(٩) مبروك المناعي، في إنشائية الشعر العربي القديم، دار محمد علي للنشر، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠٦، ص٢٧.

مهيجة إياها مرات. وتلك حال الشعراء العشاق يسلوهم محبوهم فيلين لعــواطفهم مـــا صلد من الحجارة.

ب٦:

في البيت تصوير لجمال الطبيعة "ورد" في أجلى مظاهره. صورة الورد بألوانه تتمـــاهى وصورة الضحى بإشراقه لتحرك في الشاعر الشوق. تصوير للطبيعة يخفي تصويرا لـــولادة وقد كلف بها إذ أنها تختلس القلوب والألباب وتحبس الأنفاس فتشـــرق الحلـــوق إيـــذانا بتواصل النوائب والمحن.

ب٧:

تقاطعت في البيت معطيات صوتية وأخرى صرفية.أما المعطيات الصوتية فتتمثل فيمـــا يلي:

- تكرر صوت "الحاء" ٣مرات: "ينافحه، الصبح، أحداقا"، وهو صـــوت يـــنم عـــن وحوحة دالة على الألم وإن نعم الشاعر بلذة تغمره وهو يقـــف علـــى جمـــال المنظـــر في الطبيعة. ثنائية اللذة و الألم ممتزجة في ذات الشاعر.

- تكرر صوت "السين، الصاد" ٣ مرات: "سرى، وسنان، الصبح"، وهـــو صـــوت الصفير المهموس الموحي بالتأزم والانسياب وإن أوحى ظاهرا بالانشراح.

- تكرر صوت "القاف" مرتين: "عبق، أحداقا"، وهو صـــوت دل علـــى الاختنـــاق الناجم أصلا عن الشوق الشديد.

وأما المعطيات الصرفية، فتتمثل فيما يلي:-

١ - الصفات:- "عبق، وسنان": صفتان دلتا على جمال المكان الذي حرك الـــذكرى في خيال الشاعر، فكانت القصيدة.

٢ - الأفعال:- "سرى، ينافحه، نبه": ارتبطت ارتباطا زمنيا هيأ جوا مـــن الشـــجن و التلهف على ما فات، يوم كان الشاعر يـــنعم بالوصـــل في طبيعـــة أخـــص خصائصـــها الشاعرية.

تقاطعت المعطيات الصوتية الدالة على التأزم وصفات الجمال في المكان المهيجة لشـــوق الشاعر لتنبئ عن صدق تجربة، تجربة العشق والهيام بولادة. وما يزيـــد التجربـــة تأزمـــا ومأسوية سلو تقابل به ولادة عشقا صادقا تنغلق عليه القصيدة.

ب: ٨

ما يميز هذا البيت عن غيره، التصريح بالعواطف الكامنة في ذات الشاعر. فجميع عناصر الجمال من فضاء ومكان وخضرة تحرك ذكرى تشوق الشاعر إلى ولادة وهو تشوق لم يستطع إخفاءه وقد ضاق الصدر عنه. تلك هي حال الشاعر، ضيق صدر بعد رحابة في حجم رحابة الطبيعة، وشـــوق شديد إلى اللقاء بعد نعيم اللقاء. شرق الشاعر مرتين في هذا البيت، مرة في العروض "تشوقنا" ومرة في الضرب "ضاقا" بحكم القافية. استطاع الشاعر أن يخفف من وطأة الشرقة الأولى مصرحا بضيق صدره، إلا أنه لم يفلح في التنفيس عن حاله في الشرقة الثانية لأنها شرقة مفروضة بحكم القافية ولا مفر من القافية، سيف مسلط على الشاعر يخضع له مكرها، فينغلق البيت وتظل الذكرى ماثلة في كيان الشاعر مضطرمة، فيغدو الصدر ضيقا حرجا ويظل الشوق ملتهبا إذ لا حياة للشاعر إلا بالشوق ولسان حاله يقول: "عش بالشوق وللشوق فإنما دنياك كون وشوق...". ظل الشوق ملتهباً، وظلت ولادة مفعولاً بها نحوا، فاعلاً في نفس الشاعر. وظل الشوق إليها عاملاً والشاعر من معمولاته مكتويًا بنيران السلو والشوق والذكرى. يستمر الشاعر في تمسكه بولادة مطلباً بعيد المنال، بل مستحيل المنال، غابت ولادة فتمسك بلازم من لوازمها "ذكراها" فدعا على نفسه وليس أشد على النفس مـــن الـــدعاء

عليها "لا سكن الله قلبًا...".

ب٩:

يستمر شوق الشاعر إلى طيف ولادة، ويصل الاختناق مداه.. الـدعاء علـى الـنفس مكين. و أصوات الاختناق مكثفة. تكرر صوت "القاف" مرتين وفي كلمتين متتـاليتين في صدر البيت وفي عجزه: "قلبًا، عق، الشوق، خفاقًا"، وللتتابع والتتالي دلالته: فرط ضـيق يهز جوانح الشاعر يقابله هجر مفرط يسكن قلب ولادة. وقد يكون الشـاعر واهمـا في حبه ولادة، وهو حب "من جانب واحد" زال وأصبح أثراً بعد عين. وتلك هـي الحيـاة: اجتماع فافتراق. وصال فصدود. ومتى استقام مع النساء حساب حتى نأسى على الفـراق. أو لم يكن أجدى بالشاعر أن يهدئ من روعه فيكبح جماح حب جلب غـيظ الأعـداء "غيظ العدى من تساقينا الهوى..."(١٠).

فسلاها كما سلته. ولكن لو افترضنا أن الشاعر بادل ولادة هجرا بهجر، هل كانـت القصيدة تبنى على ما هي عليه؟: بلاغة لفظ وقوة معنى وصدق تجربة. إنه خيال الشـاعر، بفعله تنقلب القصيدة رواية تتصارع فيها الشخصيات في مكان: جمال الطبيعة عنوانه، وفي زمان استرجاع الذكرى محركه. تتصارع الشخصيات وإن بطريقة سلبية محكومة بجدليـة: الرغبة والسلو.

لقد افتتحت القصيدة بتأكيد الذكرى: "إني ذكرتك" في البيت١، "ذكرى تشوقنا" في البيت٨، "ذكركم" في البيت٩. وللذكرى دلالة الاضمحلال على مستوى الواقع فيصبح الحدث جزءاً من الماضي. ألا تكون الذكرى نهاية كل مرغوب فيه؟. ألا تكون الـذكرى

(١٠) البيت٥ من قصيدة: "أضحى التنائي"، ديوان ابن زيدون، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، بـيروت، (د.ت)، ص ص ٣٨٦-٣٩٣.

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا

نهاية كل بداية، نهاية عمل الإنسان؟. أليست القصيدة نفسها من الذكرى؟، وما اطلاعنا عليها إلا من باب الذكرى. أليس تاريخ الأندلس نفسه من باب الذكرى. ألم يتنبإ الشاعر بسقوط الأندلس مثلما سقطت العلاقة بين الشاعر وولادة في باب الذكرى وهو الذي عاش فيما بين٣٩٤هـ-٤٦٣هـ، وهي فترة عصيبة في تاريخ الأندلس؟.صار كل شيء ذكرى من التاريخ، ذكرى يرددها الشعراء آسفين على ما استرد منهم من مدن كانت مدارس أدبية وعلمية تشد إليها الرحال. قلاع اضمحلت بفعل حركة الاسترداد، لم نعرفها إلا من خلال الذكرى.

ب + ١٠ ب١١ + ب١٢:

ما يجمع هذه الأبيات خلوها من صوت "القاف" عدا القافية. ولئن لم تخرج عن الإطار العام للقصيدة: معاني الشوق والذكرى والاستعطاف لاستمالة قلب ولادة، فإنها تمثل مرحلة البكاء والتصريح بالضعف.ففي البيت١٠، بدأ العد التنازلي في ضرب من التأسي يستشف من "لو" الدالة على الاستحالة والامتناع لأن حدث السلو أمر واقع، هذا إن لم يكن مستحيلاً لأن ولادة طوت صفحة الحب التي جمعتها بابن زيدون وانصرفت إلى من وقفوا في صف أعدائه، فكانت القصيدة من باب "قد أسمعت لو ناديت حيا" ولا سماع لمن كان السلو والصدود طبعاً أو تطبعاً فيه. نبرة التوسل في البيت جلية "فتى أضناه". إن إظهار الضعف والتذلل من سمات الراغب المتشبث بالحبيب "ولادة" وهي السالية، تعرف رقة المشاعر وتغيبها ولا تقدرها حق قدرها إن لم تقصد العبث بها.

يسترسل بكاء الشاعر ويصل حد التوسل المميت لكي يتمتع ولو بيوم واحد كتلك الأيام التي انصرمت "أيام لذات" وصفها بالإضافة نحوا، وكان المضاف نكرة على سبيل التعميم.

لقد توسط ب١١ البيتين ١٠ و١٢ المحكومين بأداة الشرط "لو" المنبئة عن استحالة وقوع الفعل، فعل التمني "لو شاء، لو كان، المنى" لأنه جوهر فعل التمني. وهو تمن لا يتجاوز لحظة لقاء. لم يطلب الشاعر غير

يوم كتلك الأيام الخوالي.رضي بالقليل و لم يرض به القليل. وبقي يجتر الذكرى حتى انخفض صوته وغنت نبرتـــه وخارت قواه.

على مستوى الأصوات: تكرر صوت: "الميم "و" النون "٢٩مرة. وهو عدد لافــت للنظــر. الصـــوتان خيشوميان. ولعلهما يعبران عن الشجن الذي أرهق الشاعر وضيق أنفاسه.

انتقلت القصيدة من أصوات الاختناق والغصة المنبثقة مـــن الحلـــق، في بدايتـــها، إلى أصوات الغنة الصادرة عن الخياشيم. وهو انتقال جسد حالة الشـــاعر الهائمـــة، ضـــريبة مفروضة على المحب الصادق يبتلى بمن حبه سراب خلب يحسبه الظمآن ماء وما هو بمـــاء سرعان ما تنكشف حقيقته للصادي وقد حسمت أمره "لو" الشرطية المنبئة بالاســـتحالة، تعاطفها مع ولادة واضح فاضح. على مستوى الخطاب الشعري، يتوجه الشـــاعر إلى ولادة مخاطبًا:

- بصيغة المخاطب المفرد من ب١ إلى ب٨: "ذكرتك، إليك".

- بصيغة المخاطب الجمع من ب٩ إلى خاتمة القصيدة: "ذكـــركم، وافـــاكم، بكـــم، لعهدكم، سلوتم".

وقد استعمل ضميرين مختلفين في الحديث عن حالته:

- بصيغة المتكلم المفرد: "إني، ذكرتك، لي، أرقي، بي، حملي، علقي، نفسي".

- **بصيغة المتكلم الجمع:**

أ- ما يحيل على الشاعر وولادة: "نلهو، بتنا، جرينا".

ب- ما يحيل على الشاعر: "لنا، تشوقنا، جمعنا، كنا، بقينا، نحن". خاطب الشاعر ولادة مرتين بضمير المخاطب المفرد، في حين خاطبها بصيغة الجمع خمس مرات. وفي تغليب صيغة الجمع أكثر من دلالة. لعل أبرزها وأهمها: الاحتفاظ بود وصورة مشرقين لولادة لم يرد أن يشوههما بمفعول الهجر.

ولعل الأمل يحدوه إلى إصلاح ذات البين يوماً، فيعود كما كان في سالف عهده. لقد امتزج حب ابن زيدون الصادق لولادة بمترلتها الأدبية والاجتماعية، وهي على ما هي عليه من موهبة ومكانة : شاعرة مفوهة سليلة الإمارة ورفعة المقام. لم يشأ أن يترل بها، على مستوى التخاطب، إلى مترلة عامة الناس. إن ما وقر في قلب الشاعر من صدق عاطفة نحو الحبيب – وإن سلا – لا يمكن أن تغيره لحظات الغضب وإن كانت جارفة.

لقد استعمل المشاعر ستة ضمائر بصيغة الجمع محيلة على شخصه. وفي ذلك دلالة على عدم الاستهانة بنفسه في مقابل تعظيمه ولادة ولسان حاله يقول: نحفظ لكم عهدا، نستعطفكم، لكننا لا نقل عنكم مقاما ومترلة أدبًا وعلمًا على الأقل.

تلك هي لعبة الضمائر ما كان منها بصيغة المفرد أو الجمع في القصيدة تحيل على مسمياتها مجردة مرة من الإحالات الدلالية، مشحونة مرات أخرى بدلالات إيحاءات بل إن القصيدة هي ضمير المجتمع ثابتًا كان أم متحولاً، محبًا كان أم كارهًا، مخلصًا في حبه أم ساليًا. ابن زيدون وولادة صورة للمجتمع الأندلسي اجتماعيًا وثقافيًا.

ب١٣:

توجه الشاعر بالنداء إلى ولادة دون وجود إشارة إليها، تلت ذلك صفات ثلاث عرفت بأعلى درجات التعريف، "الألف واللام": "الأخطر، الأسنى، الحبيب"، الأوليان من الصفات تحملان درجة التفضيل القصوى تبرران ميل ابن زيدون بل تمسكه بولادة "علقًا" نفيسًا زاحمه فيها مزاحم(١١) وإن لم يكن في حجمه إلا في المال والجاه. وهو ما به استمال قلبها فهجرت شاعرنا وتركته نهبًا للذكريات.

(١١) هو أبو عامر بن عبدوس نافس ابن زيدون في حب ولادة، وكان أوسع حالاً منه وأوفر مالاً.

ب١٤:

يحكمه تركيبًا إضافة "محض ود، ميدان أنس"، يشكلان محورًا دلالياً ثابتًا في قصائد ابن زيدون وهو يتوجه بالخطاب إلى ولادة. يحيل التركيبان الإضافيان من حيث المعجم على تجربة العشق غير المتكلفة التي عاشها الشاعران قبل أن تنفصم عرى العلاقة بينهما. لقد تربع الشاعر على "عرش الوداد" إن كان للوداد عرش. وقد خرج هذا الوداد من مجال التجربة الذاتية القائمة على الكتمان إلى مجال التجربة الشعرية، ومجالها البوح والتصريح إن لم نقل التشهير بعد حادثة السلو والهجر.

ب١٥:

على إصرار الشاعر وتشبثه بولادة حبيبة، تنغلق القصيدة بالإعلان عن حفظ للعهد وثيق وسلو من جانب ولادة ينبئ عنهما الطباق: "سلوتم، بقينا". وعلى مستوى الضمائر، استعمل الشاعر ضميري الجمع: "كنا، عهدكم، سلوتم – كنا، بقينا، نحن". ولهذا الضرب من الضمائر دلالات كثيرة، لعل من أبرزها، تضخيم المخاطب دون الإزراء بالنفس. يستعطف الشاعر ولادة آملا استمالتها وهي على ما هي عليه من هجر وصدود إن لم نقل خيانة. وفي مقابل ذلك، يضخم الذات ويبوئها مكانة هي بها جديرة: حفظ العهد وبصيغة مشرفة أنبأ عنها ضمير المتكلم الجمع المنفصل "نحن"، وهو آخر ضمير في آخر جملة تختتم بها القصيدة "بقينا نحن عشاقاً" وفي تقابل تام مع جملة، العامل فيها ولادة "سلوتم".

الخاتمة

وظف الشاعر جملة من المعطيات: لغوية وبلاغية وصوتية، وردت متقاطعة متشابكة مشكلة جملة من الدلالات منها ما يمت بصلة إلى نفس الشاعر المنكسرة بفعل الهجر لم يفرجه نسبياً إلا الإصرار والأمل. ومنها ما له علاقة بالظروف الاجتماعية والانتماء "الطبقي" إن صح التصنيف. ومنها ما هو وثيق الصلة بالتاريخ، تاريخ هو من باب الذكرى، ذكرى غص بها الشاعر وشرق. فاعتل. تجاوبت معه الطبيعة فأشفقت عليه. وسلا من حفظ له ودادًا ضخمه باستعمال المرفع للشأن من الضمائر. تعاطفنا مع الشاعر لا من أجل ولادة، بل من أجل ما بقي ذكرى يدمي القلوب ذكرًا. قراءة للقصيدة – على تواضعها – لامست "إنشائيتها" ومنها عبرنا إلى دلالاتها.